الفصل الأول

فكرة الكتاب

كان الاعتقاد الشائع بين علماء النفس إلى عهد قريب ، أن المراهقة فترة عصيبة فى النمو يشوبها القلق والتوتر والأزمات النفسية الحادة بالنسبة لجميع المراهقين . وأن هناك خصائص عامة ثابتة تميز الأفراد فى هذه المرحلة من نموهم ومن بينها مثلا تمردهم على آبائهم وثورتهم على مدرسيهم وعلى أشكال السلطة المختلفة !

وكان لكتابات « ستانلى هول » على وجه الخصوص ، التى وصف فيها المراهقة بأنها « فترة عواصف وتوتر وشدة » أكبر الأثر فى إشاعة هذه النظرة المتشائمة المستمدة إلى المراهقين ومشكلاتهم .

على أن السنوات العشرين الأخيرة قد شهدت إتساعاً فى نطاق البحوث والمشاهدات التى أجريت على المراهقين فى حضارات وثقافات متباعدة . وقد أكدت نتائج هذه الدراسات التى قام بها بعض علماء الأجناس (من أمثال مارجريت ميد وروث بندكت) أن للمراهقة أشكالاً وصوراً متعددة[1] ،

(1) MEAD. M. , From the South Seas. Studies of Adolescence and Sex in Primitive Societies N.Y., 1939.
BENEDICT,R., Patterns of Culture, London, 1935.

تتباين بتباين الثقافات وعادات الأقوام ومدى المساهمة التي يسمح بها المراهقين في وظائف ومسئوليات المجتمع الذي يعيشون فيه .. كما تنبه علماء النفس بدورهم إلى إجراء الملاحظة الدقيقة على ما بين المراهقين في المكان الواحد من فروق واختلافات ؛ فإذا بهم يخرجون من هذه الملاحظة بنتيجة تخالف الرأي القديم في اتجاهه إلى التعميم ، وتؤكد أن المراهقين في المدينة الواحدة ، بل في الحي الواحد ، بل في الشارع الواحد من هذا الحي — يختلفون من بيت إلى بيت في الصورة التي تكون عليها مراهقتهم . وأنه لا تكاد توجد خصائص عامة ثابتة لسلوك جميع المراهقين ، وإنما هناك ظواهر سلوكية تتأثر باتجاهات العصر والثقافة المحيطة وثقافة مجموعات المراهق الخاصة ، إلى جانب عوامل أخرى يختص بعضها بالمراهق نفسه ويتصل بعضها الآخر بظروفه وعلاقاته الإجتماعية .

وقد أوضحت الدراسات الأنثروبولوجية الاختلاف في الصورة العامة للمراهقة بين المجتمعات البسيطة والمجتمعات المركبة الحضارة . ففي النوع الأول من المجتمعات ، يسمح للمراهقين — بمجرد بلوغهم — بالمشاركة في مجتمع الرجال ومسئوليات الرجال ؛ وخصوصاً أن الأعمال والحرف في هذه المجتمعات ، من زراعة إلى نسيج وغزل إلى صيد للسمك ، كلها من الحرف البسيطة التي لا يحتاج إتقانها إلى اكتساب مهارات معقدة ولا إلى تعلم طويل الأجل . والنتيجة أن المراهق لا يطول اعتماده على الغير ، وإنما يدخل مباشرة في طور من أطوار الرجولة ، فيتسنى له بذلك إشباع حاجاته

الأساسية إلى الاعتبار الاجتماعى، والاعتماد على النفس، والشعور بالمسئولية، والمساهمة الفعلية فى المجتمع . ومن ناحية أخرى فإن الزواج فى المجتمعات البسيطة مبكر، والإشباع الجنسى يتم على نحو طبيعى . . أى أن مباشرة الوجولة، بمهامها ومسئولياتها ووظائفها المختلفة، لا يحدث فيه تسويف أو تأجيل فى المجتمعات البسيطة والتى ما زالت على البداوة . . . .

أما فى المجتمعات المتحضرة فإن الصورة تختلف عن ذلك كثيراً ؛ فاستقلال المراهق بالمسئولية واعتماده على نفسه — إقتصاديا واجتماعياً — يتطلب مدداً طويلة تتفاوت فى المجتمعات المختلفة، والتخصص وإتقان المهن الفنية يحتاج إلى مهارات مركبة وإلى سنوات طويلة من التعليم الثانوى والعالى ، كما تحتاج الحياة فى المجتمع الحديث إلى التأهب والتدرب على فنون وخبرات مختلفة، للحديث وقضاء الفراغ وإنشاء العلاقات الاجتماعية والاستمتاع بألوان الثقافة والفن والرياضة ، ويتأخر كذلك طويلا سن الزواج والمقدرة على إنشاء الأسرة . . . . وعلى هذا فإن المراهق لا يشبع حاجته إلى الاعتبار الاجتماعى ولا يدخل دنيا الكبار بالسهولة التى يجدها المراهقون فى المجتمعات البدائية .

هذا عن ثقافة المجتمع الأكبر — فإذا ما نقل المتأمل البصر من هذا الإطار العام إلى تفصيلات الصورة ، طالعته مجموعات عديدة صغيرة ينتمى إليها المراهقون داخل المجتمع . وهى وإن كانت جميعها متأثرة بالثقافة السائدة فى المجتمع ، إلا أن لكل منها مع ذلك طابعه الخاص وثقافته

خاصة المميزة . . أسرة تختلف عن أسرة ، ومدرسة تغاير أخرى ، ومجموعة من الزملاء في العمل أو النادي لا تشابه إلا قليلا المجموعات المماثلة . ويتأثر طابع المراهقة بحكم الحال بهذا التباين والاختلاف . . . ففي الأسرة على سبيل المثال ، قد يحترم الأبوان حاجات المراهق المتطورة في حالة ما وقد يتساهلانه على أنه ما زال طفلا في حالة أخرى . وقد يكون جو العلاقات بين المراهق ووالديه جواً من القسوة المتبادلة فيسهل عليه أن يستثيره في مشكلات المراهقة وأحوالها وينجو بذلك من الانغلاق والقلق ، وعلى العكس فربما شعر بالجفوة وبعد المسافة بينه وبين والده فلا مفر من أن يتجه إلى الأقران والزملاء في كل ما يريد أن يستفسر عنه وأن يتفاهم معهم ويعمل بوحيهم .

من هنا جاءت فكرة البحث الذي يتضمنه هذا الكتاب والذي تتلخص في محاولة الإجابة عن الأسئلة الآتية :

ما هي الاختلافات في الصورة العامة للمراهقة بين المدن والقرى المصرية ؟ وما هي الأنماط والأشكال المختلفة التي تأخذها مراهقة الأفراد المصريين ؟ وما العوامل والظروف في ثقافة المجتمع المصري والأسرة المصرية وغيرها من مجموعات المراهقين — التي تتحكم في هذه الأشكال والصور ؟ وإلى أي حد تتفق نتائج البحث مع النظريات الحديثة في المراهقة ؟ وما الذي يمكن أن يترتب على هذه النتائج في سياسة المراهقين وتربيتهم ؟

وقد اقتصر البحث على الذكور من المراهقين المصريين ، وذلك بحكم

ظروفه والطريقة التي أجرى بها ، والتي سنتولى الآن شرحها .

طريقة البحث وأخطاءه :

إشترك فى تقديم مادة هذا البحث طلاب من معهد التربية العالى (حالياً كلية التربية) بجامعة عين شمس ، فى سنة سابقة ، عندما كان جميع طلاب هذا المعهد من البنين ... وقد عنّ للمؤلف أن يفيد من تعدد الثقافات التى يمثلها الطلاب ، واتساع رقعة بيئاتهم الاجتماعية ، واختلاف موطنهم الأصلى والجهات التى أمضوا مراهقتهم بها بين صعيد مصر وبلاد الوجه البحرى والعاصمة .. وأن يفيد أيضاً من دراستهم لموضوع « المراهقة » فى جمع المعلومات والمادة اللازمة للبحث . ولا بد للأمر من بعض الإيضاح :

جميع هؤلاء الطلاب قد حصلوا على درجة الليسانس أو البكالوريوس قبل التحاقهم بالمعهد من إحدى كليات الآداب والعلوم والزراعة والتجارة ودار العلوم بالجامعات المصرية أو كلية اللغة العربية بالأزهر الشريف . وفى معهد التربية العالى يمضى الطلبة سنة دراسية يدرسون فيها عدة مقررات فى التربية وعلم النفس وما يتصل بهما من مواد ، ويحصلون فى نهايتها على مؤهل فنى يخصصهم للتدريس بالمدارس الثانوية ... ويختلف طلاب المعهد المتخرجين فى كلية اللغة العربية عن المتخرجين فى الكليات المعتادة فى الطريق الدراسى الذى سلكوه ، والذى يتسلسل من الكتاب إلى

المدرسة الأولية فالمعهد الدينى فكلية اللغة . كذلك يختلف سير أغلب المتخرجين فى دار العلوم عن الطريق العادى الذى يبدأ بالمدرسة الابتدائية فالمدرسة الثانوية فى حالة الكليات الجامعية الأخرى . . وبهذا كانت المجموعة التى اشتركت فى تقديم مادة البحث ، ممثلة لكافة الثقافات فى المدارس والمعاهد المصرية . وقد شملت المجموعة أيضاً من أمضوا فترة المراهقة فى قرى الوجه البحرى أو القبلى ، ومن أمضوها فى المدن أو العواصم ، ومن أمضوا شطراً منها فى القرية وشطراً فى المدينة (وأغلب هؤلاء الآخرين من أهل القرية الذين تركوا أسرهم لمواصلة تعليمهم بالمدرسة الثانوية أو بالمعهد الدينى فى المدينة) . كذلك ضمت المجموعة المسلمين والمسيحيين، فأمكن بذلك دراسة تأثير الجو الخاص للجمعيات والأوساط الدينية التى تتغلغل فى حياة المراهقين فى مصر .

وقد يؤخذ على عينة البحث أنها عينة مختارة من حيث مستوى التعليم الذى بلغه أفرادها بوصولهم المراهقة ، وهو التعليم الثانوى (أو ما يقابله فى خط التعليم الدينى) الذى لا يبلغه جميع المراهقين فى مصر ؛ وبذلك كانت نتائجه تصدق أكثر ما تصدق على طلبة المدارس من المراهقين المصريين . على أن دراسة نتائج البحث نفسها توحى بإمكان التعميم فيها — ذلك أن هذه النتائج إنما تشير إلى وجود عدة أنماط وصور للمراهقة فى مصر ، بل تقول بعدم المشابهة التامة بين فردين من المراهقين . فهذا الذى وضع من عينة محدودة ، لا نظن إلا أنه يزداد وضوحاً وتأكيداً إذا اتسعت العينة فضمت إلى طلبة المدارس غيرهم كذلك .

وثمة أمر آخر يجعل التمثيل الإحصائى الدقيق أمراً غير ذى بال فيما يتعلق بهذا البحث ، وهو أننا لم نستهدف من البحث بيان النسب المختلفة لورود شكل معين من أشكال المراهقة ، بقدر ما استهدفنا تصوير الأشكال المختلفة والعوامل والظروف التى أدت إليها . فالذى يهم المربين والموجهين هو معرفة الأسباب والظروف التى جعلت مراهقة نفر من الناس مراهقة متوافقة مشبعة ، والأسباب والظروف التى اتجهت بمراهقة نفر آخر وجهة الانحراف ، أو التمرد على الأبوين والعدوان على المجتمع ، أو الانطواء والإغراق فى أحلام اليقظة والاتجاهات السلبية . . وإذا كان هناك تحفظ يجب الإشارة إليه فيما يتعلق ببعض نتائج هذه الدراسة ، فهو أنها متأثرة بظروف مصر التى تسبق الثورة مباشرة (وهى فترة المراهقة لأشخاص البحث) . ولذلك فان بعض ما يتصل بالحديث عن أثر الحزبية على المراهقين وما شابه ذلك من موضوعات ، ينطبق على مراهقى الأمس أكثر من انطباقه على مراهقى اليوم .

وأما الطريقة التى نفذ بها البحث ، فهى أن المؤلف رغب إلى طلبته بعد أن قطعوا معه شوطاً فى دراسة موضوع (المراهقة) أن يكتب كل منهم فى موضوع جعل عنوانه « دراسة للمراهق (س) والظروف التى لابست مراهقته » . . . وأفهم الطلاب بأن كلا منهم حر فى أن يكتب عن نفسه — سواء ذكر ذلك صراحة أو لم يذكره — أو أن يكتب عن شخص آخر ، بشرط أن يمت إليه بصلة قوية ، وبشرط أن يكون قد عاصر

مراهقته من بدايتها وألم بظروفها[١] . وأفهم الطلاب أيضاً أنهم غير مقيدين فى كتاباتهم بقيد ما من قيود التبويب والتسلسل المنطقى ، وأن أهم ما يطالبون به هو شرح ظروف البيئات المختلفة التى عاش فيها المراهق (س) والتاريخ التطورى لحالته ؛ ولا مانع فى سبيل ذلك من إيراد موجز لحياته فيما قبل المراهقة . . . فهذه الطريقة إذاً قريبة الشبه بما يحدث فى « المقابلة الحرة » التى يترك الشخص المقابل فيها طليقاً يفيض فى الحديث فيما يعن له من موضوعات ، دون مقاطعة من الفاحص ودون طلب الإجابة عن أسئلة محددة بالذات كأسئلة « الاستخبار » . وهى قريبة الشبه أيضاً بما يحدث فى العيادات النفسية وفى مواقف التحليل النفسى .

وقد جاءت إجابات الطلبة — باستثناء قليل منها — منطلقة ، تامة الصراحة ، وفياضة بالمواقف والحوادث وشرح الظروف المختلفة التى أثرت على المراهق ، أما العوامل التى شجعت على الإفاضة والانطلاق فهى أيضاً شبيهة بالعوامل المماثلة فى الموقف التحليلى بالعيادة النفسية . . . فهناك العلاقة الوثيقة التى جمعت الباحث بطلابه ، وهى تشبه من بعض وجوهها العلاقة التى تقوم بين المعالج والمريض فتجعل الأخير يفضى إلى الأول بمكنونات نفسه ومخبآت صدره . وقد أضاف إلى أثر هذه العلاقة ما اتبعه الباحث من حكايته للطلبة عن مراهقته هو وقراءته لهم بعض مذكراته فى

---

(١) كتب ثمانية فقط من الطلاب عن أشخاص غيرهم ، وقد رؤى عند تحليل النتائج — استبعاد هذه الحالات الثمانى وذلك مراعاة لشرط التجانس فى البحث .

المراهقة ؛ ومثل هذا يتبعه المعالج النفسى عندما يحكى لعميله أحياناً عن بعض ما صادفه فى حياته من متاعب ، ليميز بذلك ما قد يقوم بين الإثنين من حجاب ، وليشجع العميل على اقتحام الأسوار الداخلية فى أعماق سريرته . وإلى جانب هذا فقد أفاد الطلاب من دراستهم للنواحى المختلفة فى المراهقة ، فى تذكرهم للأثر الشخصى لهذه النواحى فى حياتهم ، وفى فهمهم وتحليلهم لخبرات المراهقة .

وللطريقة التى اتبعت فى البحث — والتى يمكن تسميتها بالطريقة الإكلينيكية — بعض الميزات التى لا تتوافر فى الطرق الأخرى المألوفة كالاستخبار أو السؤال والجواب . فأما ميزتها الكبرى — وهى ما يتفق تماماً مع أغراض البحث — فهى تبيان الظروف والملابسات التى تدخلت فى تشكيل الظواهر المختلفة ، وكذلك إتاحة الدراسة الطولية التى تظهر تأثر الخبرة بالخبرات السابقة وتأثيرها على الخبرات اللاحقة ، أى دراسة التاريخ التطورى الحى لفرد من الأفراد . ومن الواضح أن هذه الدراسة لا تستبين بطريقة الاستخبار الذى يتناول قطاعاً مستعرضاً ، وفى أحسن الأحوال عدداً من القطاعات المستعرضة دون الخيوط التى تربط بينها وتوضح علاقاتها .

وأما القصور فى الطريقة فيتلخص فى أن الإجابات المختلفة لم تستوف جميع النقط التى يمكن استيفاؤها فى المراهقة ، مما يمكن أن يحيط به — دون التعمق — عدد من الاستخبارات . ونرى على الرغم من ذلك أن

هذا لم يكن بالعيب الكبير ؛ ذلك أن الموضوعات التي تطرق إليها أشخاص البحث فى كتابتهم عن أنفسهم — بعد انقضاء فترة زمنية على مراهقتهم — لابد أن تكون أكثر الموضوعات ارتباطاً بحياتهم وأرسخها أثراً فى المراهقة وإلا لما علقت هذه الموضوعات بأذهانهم مع ما كتبوا فيها من تفصيل . . وقد لوحظ فعلا أن موضوعات الحياة الوجدانية والاجتماعية نالت حظاً أوفر كثيراً من الحديث عن الجوانب الإدراكية ، وهذا أمر لا يخلو من دلالة فى ذاته ، فإذا كانت هذه الموضوعات هى التى أصابت اهتمام المراهقين ، فهى إذاً الموضوعات الأجدر بعناية الباحثين فى أساليب توجيههم . . . وأما ماعدا ذلك من أوجه المقارنة بين الطريقة الإكلينيكية والطرق الأخرى فى البحث ، فينصب على الصعوبة الكبيرة فى تصنيف الإجابات وعقد المقارنات وتحليل النتائج فى الطريقة الأولى .

ولقد يقوم بعض التساؤل عن مدى الدقة فى كتابة الأفراد عن مراهقتهم بعد مضى أربع سنوات (فى المتوسط) على انتهائها . . . ولا يجوز إنكار أثر عامل الوقت فى نسيان كثير من التفصيلات ، على أنه يجب أن يوضع مقابل ذلك أمران أولهما سبق ذكره ، وهو أن لما ذكره أشخاص البحث بعد هذه المدة دلالته الخاصة وتأثيره الخاص على المراهقة (وخصوصاً إذا أدخل فى الاعتبار أنهم كانوا يدرسون النواحى المختلفة فى المراهقة أثناء كتابتهم للمقالات) ، والثانى أن وصف المراهق نفسه — إبان اجتيازه لمرحلة المراهقة — وصف أبعد ما يكون عن الموضوعية والوضوح ،

لاضطراب المراهق فيما يحاول وصفه ومعاناته له واندماجه فيه . . . وليس أعسر على الفرد العادى من أن يحلل لنفسه خبراته أثناء اجتيازها ومعاناتها ، ولعله يكون أقدر على الحكم على سائر الملابسات والظروف التى أثرت على هذه الخبرات بعد الانتهاء منها .

وقد كان عدد حالات البحث تسعين ، كتبوا جميعاً — باستثناء ثمانية طلاب — عن مراهقتهم أنفسهم ، وذكر أغلبهم ذلك صراحة وآثر الباقون أن يلقبوا المراهق موضوع الحديث بلقبه الرمزى (س) ثم وضح تماماً فى سياق الحديث أنهم المقصودون به . ورأينا بعد الدراسة التمهيدية للحالات استبعاد ثلاث وعشرين حالة منها ؛ فقد استبعدت أولا الحالات الثمانى التى كتب أصحابها عن أشخاص غيرهم وذلك لمجانسة الحالات الباقية ، كما استبعدت حالات ثلاث لأن أصحابها — وهم يشكرون على مساهمتهم — ينتمون إلى أقطار شقيقة ، وليسوا مقصودين بهذا البحث ، واستبعدت الحالات الأخرى إما لأن ظروف المراهقة لم تتضح بما يلقى ضوءاً كافياً على اتجاهاتها ، أو لمبالغة الكاتب فى ناحية واحدة (كالناحية الجنسية) جعل منها محور الحديث كله . . . وبذلك أصبح عدد الحالات المدروسة ٦٧ حالة ، كل واحدة منها موسوعة حية حافلة بالموضوعات والحوادث التى تستحق التأمل والدراسة ، وكل حالة منها تصلح موضوعاً لكتاب .